معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 19/ العدد 1 (جوان 2024): ص.ص: 363-376

أصول الخطاب النقدي السيميائي الجزائري

قراءة في نموذجي عبد المالك مرتاض ورشيد بن مالك

The Origins of the Algerian Semiotic Critical Discoursem

A Reading of the Models of Abdelmalek Mortad and Rachid Ben Malek

إسماعيل لبزة [1] *. أ.د حبيب بوزوادة[2]

[1]جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، مخبر اللسانيات العربية وتحليل الخطاب، الجزائر، ismail.labza@univ-mascara.dz

[2]جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، مخبر اللسانيات العربية وتحليل الخطاب، الجزائر، habibbouzouada@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/12/28؛ تاريخ القبول: 2024/04/02؛ تاريخ النشر: 2024/06/15

ملخص:

يحاول هذ البحث أن يستقرئ أهم المرافئ الغربية التي استند إليها النقاد الجزائريون في تلقى المنهج السيميائي وبالأخص المدرسة الفرنسية، ذلك أنّ الخطاب النقدي المعاصر في الجزائر هو امتداد – في مجمله – للنقد الغربي الذي أحدث تأثيرًا عميقًا في رؤى نقادنا وأفكارهم أمثال عبد المالك مرتاض ورشيد بن مالك اللذان نهلا الكثير على يد أبرز منظري السيمياء في أوروبا.

وقد اتّحد سعي هؤلاء النقاد حول هدف مشترك ألا وهو تأسيس النقد العربي المعاصر ومسايرة التطورات المتلاحقة في النقد العالمي، خاصة بعد التأثير الذي أحدثه الدرس اللساني السوسيري فيه، فاستيعابهم للنظرية السيميائية عامل مهم لنقلها إلى البيئة العربية، وهو ما يبرز في دراساتهم وترجماتهم المختلفة فجاء تمثلهم لأقوال ومفاهيم السيميائيات السردية وفهمهم لأدواتها الإجرائية مميزا حيث ساعد في توطينه عربيًا.

* المؤلف المرسل.

كلمات مفتاحية: أصول؛ خطاب؛ سيميائي؛ عبد المالك مرتاض؛ رشيد بن مالك.

Abstract:

This research attempts to identify the most important Western schools on which Algerian critics relied in their reception of the semiotic approach, especially the French school. This is because the contemporary critical discourse in Algeria is, entirety, an extension of Western criticism, which has had a profound impact on the visions and ideas of our critics, such as Abdelmalek Mortad and Rachid Ben Malek, who have drawn heavily on the work of the most prominent semiotic theorists in Europe.

The efforts of these critics have been united around a common goal, namely to establish contemporary Arabic criticism and keep pace with the rapid developments in world criticism, especially after the impact that the Saussurean linguistic lesson has had on it. Their understanding of semiotic theory was an important factor in its transfer to the Arab environment, which is evident in their various studies and translations. Their representation of the sayings and concepts of narrative semiotics and their understanding of its procedural tools were distinctive, as they helped to localize it in Arab culture.

Keywords: Origins; Discourse; Semiotic; Abdelmalek Mortad; Rachid Ben Malek.

المقدمة:

إنّ الدارس للمدونة النقدية الجزائرية المعاصرة يجدها بما لا يدع الشك أنّها تنهل من روافدَ نقدية غربية متعددّة ، سواء على المستوى التنظيري والمقولات التي يتبناها النقاد الجزائريون أو على المستوى التطبيقي، وذلك من خلال الحضور الغزير للمصطلحات والمقولات ذات البعد الإيديولوجي والفلسفي الغربي، وهو ما قيّد روح الإبداع في التعامل مع النص الأدبي الجزائري والعربي ما أدى إلى قراءة مشوهة غير واعية وعاجزة عن استكناه مدلولاته الثاوية فيه.

ولا شك أنّ المنهج النقدي الغربي في عمومه ولد وترعرع في بيئة تختلف كل الاختلاف

عن بيئتنا، فهذه المناهج تعبر بحق عن الحضارة الغربية ذلك أنّها نِتاج تياراتها الفكرية والتي تحمل خصوصيتها القيمية والإيديولوجية، والإلمام بهذه المناهج يحتاج وعيًا عميقًا بخلفياتها الفلسفية، وفهما عميقا بمقولاتها ومصطلحاتها، واستيعابًا كبيرًا لآلياتها الإجرائية التحليلية، ذلك أنّ لكل منهج فلسفته الخاصة التي انطلق منها، لكن رغم ذلك سعى نقادنا إلى مواكبة الدرس النقدي الغربي ومحاكاته تنظيرًا وتطبيقًا رغم التأخر عنه.

وفي محاولة منا لسبر أغوار الخطاب السيميائي الجزائري ومرجعياته ألفينا أنّ هذا الخطاب الذي نهل من الدرس الغربي وبالأخص النظرية الفرنسية، وأثناء توطينه لجملة من المفاهيم والمصطلحات قد اصطدم بتشظٍ بين الدارسين الغربيين أنفسهم، بين مدرسة فرنسية تتبنى مصطلح سيميولوجيا انطلاقًا من رؤى ومقولات دي سوسير والتي يرى من خلالها أنّ السيميولوجيا "علم يدرس يهتم بدراسة العلامات ضمن إطار الحياة الاجتماعية"[1]، ومدرسة أمريكية أنجلوساكسونية تتبنى مصطلح سيميوطيقا استنادًا إلى الأمريكي شارل بيرس، وعلى العموم "فالسيميولوجيا أو السيميوطيقا هي علم العلامات"[2] وموضوعها الرئيس هو دراسة أي علامة سواءً في مجال اللّغة أو خارجها، هذا التشظ المصطلحي أدى إلى تعميق الأزمة النقدية عندنا فعملية الترجمة أنتجت "ستة وثلاثين مصطلحا عربيا في مواجهة مصطلحين أجنبيين اثنين يعبران عن مفهومين متداخلين لكنهما واضحان نسبياً"[3]، هذا التشتت المصطلحي ساهم في تأخرنا عن الركب النقدي العالمي، وقد شكّلت مدرسة باريس رافدًا معرفيًا ومصدرًا علميًا للنقد السيميائي الجزائري، وألهم روادها الناقد الجزائري لبناء مساقه النقدي عن طريق التّلمذة والنهل من أطروحات غريماس وجريستيفا وجينيت.

تأسيسًا على ما سبق حاولنا طرح إشكالية تتمثل في: كيف كانت تحولات الخطاب النقدي الجزائري، وما مدى تأثر الناقد الجزائري بالنقد الغربي؟ وكيف تبنّى أطروحات النظرية السيميائية الفرنسية؟

ورغبة منّا للإجابة على تساؤلات هذا البحث وفق المعطيات التّي قُدّمت سابقا، استعنا

(1) Ferdinand de saussure, cours de linguistique générale, payot, paris, 1979 , p33.
(2) T. Tudorov O. Ducrot, Dictionnaire encyclopédique des science du langage, Edition du seuile, Paris, 1972, p113.
(3) يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي الحديث، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص108.

بمقاربة تاريخية من خلال سبر أغوار الدرس السيميائي الجزائري تنظيرًا وتطبيقًا، واقتفاء أثر تحولاته من السياق إلى النسق، واستدعى هذا العمل آليات الوصف والتحليل لعينات نقدية والوقوف على دراساتهم وآرائهم النقدية.

تحولات الخطاب النقدي الجزائري ومحاولة محاكاة النموذج الغربي:

المتتبع لحركة النقد الجزائري يجد أنّها شقت طريقها نحو مواكبة النقد العالمي بخطى متثاقلة لصنع خطاب نقدي له خصوصيته العربية والجزائرية، وقد انطلقت هذه الحركة في بداياتها من منصات الصحافة لنشر بعض المقالات والتي تتسم بالنظرة التعليقية على بعض النصوص الأدبية وفق قواعد البلاغة العربية ؛ فهي "تقوم على تصحيح الأخطاء اللغوية والعروضية التي تعتري النصوص، إضافة إلى بعض التعاليق السطحية العامة البلاغية خصوصًا ، التي تفتقر إلى الشواهد الكافية، فضلاً عن نزعة توجيهية صارمة"[1]، فاتّصف النقد في هذه المرحلة بالانطباعية ذلك أنّ هدفه الرئيس استكناه جماليات النصوص الأدبية.

إنّ هذه البواكير النقدية الانطباعية في مجملها تميزت بالضعف، وقد جاء هذا الثبت في كلام أبو القاسم سعد الله حين قال: "كيف نتحدث عن النقد الأدبي في الجزائر، بينما نحن لا نعترف أو لا نكاد نصدق أنّ عندنا أدبا ناضجاً ... ما دمنا نعترف بوجود محاولات من الأدب فمن الحق أن نعترف كذلك بوجود محاولات أخرى في النقد"[2]، ذلك أن هذه المحاولات ولدت في ظروف استثنائية كانت تعيشها الجزائر تحت وطأة الاحتلال الذي كبّل روح الإبداع إلّا ما جاء به رواد الفكر الإصلاحي، ورغم أن هذا التيار قد اتّسم بالنظرة المعيارية التقليدية إلاّ أنه "ظلّ مستمراً، يجد من ينتصر له، ويرى فيه النموذج الأمثل الذي يحاكى، لكنه كان يمثل مكانة محدودة"[3]، ومن الوجوه الإبداعية البارزة في هذا الاتجاه نذكر: رمضان حمود، حمزة بوكوشة، أحمد رضا حوحو، محمد البشير الإبراهيمي.

(1) يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2002، ص09.

(2) أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط5، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص84.

(3) علي خذري، تحديث النقد الجزائري، مجلة حوليات في اللغات والآداب، جامعة المسيلة، 2006، العدد الثاني، ص08.

ولا شك أنّ هذه الانطلاقة المتثاقلة كانت بمثابة لبنة أولى لتأسيس خطاب نقدي محايث في الجزائر، فسرعان ما بدأ النقد الجزائري يشق طريقه في سماء النقد العالمي والانفتاح على المناهج النقدية الحداثية والاهتمام بشقيها السياقية والنسقية بفضل جيل أوكل لنفسه مهمة تجاوز الانطباعية وقيادة الجهود نحو تأسيس حركة نقدية جزائرية تساير ما وصل إليه المشارقة قبلنا، ومحاولة اللحاق بالركب النقدي الغربي في نظرياته ومناهجه، ونجد في طليعة هذا الجيل: أبو القاسم سعد الله، محمد مصاييف وعبد الله الركيبي، فهو جيل المرحلة السياقية الذي قاد "ثورة ضد الركود والجمود والعقم"[1] ، وغرة أعمالهم كتاب أبي القاسم سعد الله الموسوم بـ: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث والذي نشر عام 1961م إيذانًا بتشكل اتجاه جديد في النقد الأدبي الجزائري "ركّز على مضمون النص وسياقاته وأهمل خصوصياته الفنية تغييبًا نسبيًا"[2]، وقد ازدهر هذا الاتجاه بفضل العمل الاكاديمي الذي قام به رواده من خلال الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه وتوجيه طلبتها لمقاربة نصوص أدبية مشهورة مقاربات تاريخية واجتماعية ونفسية، يغلب عليها الجانب النظري ولا نجد من الممارسة التطبيقية إلا النزر اليسير.

مع وصول قطار النقد العالمي إلى البنيوية وما تبعها من مناهج حداثية تهتم بالمتن دون السياق، حاول جيل ما بعد الاستقلال دفع النقد الجزائري إلى التخلي عن دراسة النص الأدبي بعيدا عن المبدع الذي أنتجه وعدم ربطه بمحيطه الذي ظهر فيه، في خطوة نحو مسايرة هذا التوجه الجديد من النقد، غير أنّ المرحلة التأسيسية للنقد النسقي في الجزائر أعقبها مخاض عسير ذلك أنها تستند على نقل مفاهيم ومصطلحات ذات بعد فلسفي غربي إلى بيئة عربية مغايرة ما جعل هذه المرحلة تتسم بالاضطراب المصطلحي والتداخل المنهجي، ويبرز اسم عبد المالك مرتاض كأول ناقد حمل على عاتقه مهمة التأسيس لنقد جزائري محايث، وذلك من خلال غرة إصداراته النقدية سنة 1982 بعنوان: (الألغاز الشعبية الجزائرية) و(الأمثال الشعبية الجزائرية) ، محاولاً من خلالها إحداث قطيعة مع المناهج السياقية، ونجد أنّ أعمال مرتاض تتميز بالمزاوجة بين التنظير والتطبيق متجاوزًا حالة التشظي المصطلحي التي سادت الساحة النقدية ذلك أنّه يقيم مشروعه النقدي منطلقاً من

(1) عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر(1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص100.

(2)يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص35.

التراث ومنفتحا على الحداثة الغربية.

وقد شهد النقد الجزائري قفزة نوعية نتيجة جهود مجموعة من النقاد الذين أسهموا بإبداعاتهم في تطور هذا النقد ونخص بالذكر عبد الحميد بورايو من خلال بحثه الموسوم بـ: القصص الشعبي في منطقة بسكرة متبنياً المنهج البنيوي في مقاربته هذه، والناقد رشيد بن مالك وكتابه المعنون بـ: مقدمة في السيميائية السردية حيث يُبرز من خلاله ممارسته النقدية ميوله إلى المنهج السيميائي، ورغم تباين النقاد الجزائريين في تلقي المناهج الحداثية إلّا أنهم ساهموا في بناء صرح النقد العربي والجزائري ويتجلى ذلك في مؤلفاتهم الغزيرة والتي تحمل مفاهيمهم وآلياتهم الإجرائية وممارساتهم التطبيقية.

المرافئ الغربية للخطاب السيميائي الجزائري:

استطاعت النظرية السيميائية إيجاد مكان لها ضمن حقل النقد العالمي الجديد في ستينات القرن العشرين بعد بدء انحسار البنيوية، ذلك أنّها فتحت آفاقًا جديدة لدراسة النص الأدبي واستكناه مدلولاته المبثوثة وراء مكوناته العلاماتية، بل تجاوز اهتمام السيميائية حدود العلامة اللغوية إلى أي رمز مميز مكتوب كان أو منطوق أو منقوش، "فقد أطلق السيميائيون العنان لحرية القراءة بحثًا عن النسق المتخفي وراء الإشارات أو الأنظمة الدلالية للشفرات والعلامات ورغبة في كشف طرق إنتاج المعنى"[1] فكشف الدلالة يستوجب سبر أغوار العلامة.

يعود الفضل في نشأة هذا العلم الجديد إلى العالم اللغوي فرديناد دوسوسير **f.de saussire** (1857-1913) من خلال محاضراته المتميزة والتي تحمل في طياتها تأسيسًا للدرس اللساني الحديث الذي انبثق منه علم السيمياء الذي "يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية؛ قد يشكل جزء من علم النفس الاجتماعي، وإذن من علم النفس العام، سنسميه السيميولوجيا – (**Sémologie**-من الكلمة الاغريقية **Séméion**، بمعنى /**Signe**) التي يمكن أن تنبئنا بما تتكون منه من العلامات، والقوانين التي تحكمها"[2]، وعليه فمقصدية السيميولوجيا هي العلائق الماثلة في النسق العلاماتي، وهو ما شكّل سبقًا نقديًا احتفى به النقاد من كل أقطار العالم وتأثّر به الباحثون، ويتجلى هذا التأثر بالطرح

(1) بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة (مناهج وتيارات)، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ص160.

(2) يوسف وغليسي، محاضرات النقد المعاصر، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2004، ص61

السوسيري حين "تحولت إلى مواقف تبنّاها النّقاد السّميائيون، ويتضح ذلك في ما تزخر به دراساتهم اللغوية من جماليات في سياق العلاقة الاعتباطية التي تفرض دلالات غير منتهيّة"[1] داخل النظام اللغوي المنسوق في ما بينه.

استطاعت السيميائية التطور بشكل متسارع مطلع ستينات القرن الماضي في فرنسا وذلك على يد كبار نقادها أبرزهم: رولان بارت، وجيرار جينيت، وجوليان جريماس، "ليزداد نفوذها فيما بعد خارج فرنسا، مع ظهور القاموس المصطلحي الضخم الذي ألفه غريماس سنة 1979م، هذا الأخير الذي قعّد المفاهيم السيميائية وأرسى معالمها في كثير من الأقطار"[2] وكان لها تأثير عميق في بناء أفكار نقادنا الجزائريين، وقد تشكلت معالم مدرسة باريس شيئا فشيئا وتبلورت تصوراتها النظرية والإجرائية بفضل جهود غريماس وأبحاثه التي أنجزها رفقة تلاميذه وأتباعه، فمن أعماله نذكر غرّة مؤلفاته السيميائية: الدلالة البنيوية(1966م)، وكتابيه "في المعنى1" و"في المعنى2" عامي (1970م) وَ(1982م).

ويلمس المتتّبع للخطاب النقدي الجزائري بوضوح أنّ مدرسة باريس قد مثلت مصدر إلهام له، فالمتفحص لأعمال نقادنا يرى جلياً طيف المقولات النقدية الغربية وبالأخص الفرنسية حاضرا في جلّ المقاربات؛ ذلك أنّ أبرز النقاد الجزائريين قد استَقوا من المفاهيم الإجرائية الغريماسية أدواتهم المنهجية وآلياتهم الخاصة في تحليل النصوص السردية بوعي كبير، وهو ما أخرج المدونة النقدية من رتابتها والانطلاق بها نحو الحداثة الحقيقية.

مدرسة باريس وتجلياتها في المدونة السيميائية الجزائرية:

وُسِم النقدُ العربي عمومًا بالتبعية للنقد الغربي في شقيه التنظيري والتطبيقي، فعلى المستوى الجزائري لم يستطع الناقد فيها الفِكاكَ من تبعيته للمدرسة الفرنسية لحد الآن، وهو ما انجرّ عنه في البداية قراءات مشوهة للنصوص العربية بسبب مقولات نقدية لها أبعاد فلسفية وايديولوجية غربية ولِدت في بيئة ثقافية مختلفة عن البيئة العربية، وهذا الأمر منطقي ذلك أنّه يستوجب قارئًا حصيفًا ذا وعي عميقٍ وإدراكٍ كبيرٍ قصد الوصول إلى توطين سليم للسيميائية في الجزائر، وهو ما لمسناه عند مجموعة من النقّاد أمثال عبد

(1) كمال جدي، المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك، جامعة ورقلة، الجزائر، 2011، ص19.

(2)يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص133.

المالك مرتاض ورشيد بن مالك و عبد الحميد بورايو وعبد القادر فيدوح، فقد تبنوا الدرس السيميائي الفرنسي واحتفوا به، وعملوا على تطويع مقاربته وفق خصوصية النص الإبداعي العربي.

قاد الناقد الفذ **عبد المالك مرتاض** جهود التأصيل النظري والممارسة التطبيقية للخطاب السيميائي الجزائري بداية من ثمانينات القرن الماضي، فالناقد الفذ قد نهل من محاضن الأطروحات النقدية الغربية وبالأخص الفرنسية وهو ما نلمسه من حضورٍ غزيرٍ لمصطلحات نقدية استمدّها من معجم غريماس السيميائي، وهو ما يعترف به قائلا فلتكن هذه محاولة منهجية لدراسة التراث العربي السردي، ولتكن قبل كلّ شيء، مدرجة لإثارة السؤال ومسلكة لاستخدام الجدال، "ولتكن أيضا دعوة للتجديد، ولكن بعيدا عن فخّ التقليد الذي ابتلينا به بهذه النظريات التي نقرؤها في لغاتنا الأصلية طورًا، ونقرؤها مترجمة طورًا آخر، فإذا عدواها تسري كالسموم التي تتسرب في أجسامنا"[1] فهي دعوة صريحة إلى الانفتاح على التجارب النقدية الوافدة من الخارج دون تغييب للتراث العربي، ذلك أنّ "الأصالة لقاح نقدي يجعل ناقدنا مُمنَّعًا من تأثيرات المناهج الحداثية، ويكسبه قدرة على التعامل مع هذه المناهج بوعيٍ سليمٍ وَذوقٍ خالصٍ"[2] فهيّ سمة بارزة طُبِعت على أعمال مرتاض فكان حقيقٌ علينا أن نصفه بالناقد التراثي الحداثي.

سعى الناقد عبد المالك مرتاض دراساته المختلفة إلى أن يكون سبّاقا في وضع اللّبنات الأولى للخطاب السيميائي الجزائري بدءا بصياغة مصطلح خاص، له بُعدٌ تراثي مستمد من القاموس العربية، وذلك انطلاقا من كلمة سِمة جاعلا من مصطلح سيميائية الأقرب له قائلا: "إنّ مفهوم السيميائية آتٍ كما هو معلوم من تركيب (س و م) الذي يعني فيما يعني (العلامة) التي يعلم بها شيء ما كالثوب، وإنسان كالوشم"[3]، ويظهر استعماله لهذا المصطلح في أولى دراساته السيميائية ألف ليلة ولية (تحليل سيميائي تفكيكي لجكاية حمّال بغداد) الصادر سنة 1989م، ويعد مصطلح السيميائية الأكثر شيوعا في النقد العربي وسط تشظ

(1) عبد المالك مرتاض، ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص08.

(2) صلاح الدين ملفوف، التجربة النقدية السيميائية في الجزائر(معالم وأعلام)، الملتقى الدولي الثامن (السيمياء والنص الأدبي)، بسكرة، الجزائر، 2015، ص232.

(3) عبد المالك مرتاض، ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد)، ص08.

كبير للنقاد العرب في نقلهم لهذا المصطلح من مرابعه فقد أحصى الدكتور يوسف الوغليسي ستا وثلاثين ترجمة للسيميولوجيا والسيميوطيقا، أما مرتاض فجعل التراث جسرا له ليتجاوز به مستنقع إشكالية المصطلح.

تبلور فكر مرتاض السيميائي من خلال تشربه لأفكار وأطروحات المدرسة الفرنسية، ففي الحوار الذي أجراه محمد هيشور معه يعترف قائلا: "لمّا تسجلت في السوربون تحت إشراف أندري ميكائيل كان لا مناص من تغيير جلدي، دون تغيير جوهري وهويتي"[1]، هذا الوعي منه جعله ينفتح على المناهج الحداثية ومنها السيميائية دون التخلي عن تراثه، فنجد حضورا لافتًا للمصطلحات السيميائية الفرنسية في أعماله غير أنّه يخضعها للتراث العربي، ومن أمثلة ذلك مصطلح **الحيز** الذي استقاه من سرديات جينيت، "وقد أثار الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض فكرة الحيز أو الفضاء في نقده التطبيقي لأول مرة بمثل هذا العمق والشمولية لا سيما كتابه ألف ليلة وليلة"[2]، ثم صاغ منه مصطلح التحايز على وزن تفاعل وهو ما يتوافق مع الفكر العربي.

تظهر شجاعة مرتاض النقدية من خلال انفتاحه على مقولات المدرسة الفرنسية وبالأخص دراسات غريماس، فقد أخذ عنه مصطلح "التشاكل **Isotopie** الذي أخضعه إلى الموروث العربي، فكان توظيفه يقترب من مفهوم الطباق والمقابلة، كما يرى أيضا أنّه "تبادل العلاقات الشكلية بين طرفين اثنين، أو جملة أطراف، غير أنّا نحن نريد التوسع في هذا التبادل القائم على التماس التماثل الشكلي بحيث يمتد إلى كل الخصائص المورفولوجية، والنحوية، والإيقاعية، والمعنوية، فتلك هي حدود المفهوم لدينا"[3]، ليكون تصورًا أشمل للمصطلح من مفهوم غريماس الغامض.

لا شك أن الناقد **رشيد بن مالك** هو الآخر من الأقلام المتميّزة في الساحة النقدية الجزائرية، ويتجلى ذلك من خلال ما قدّمه من دراسات هامة في مجال السيميائيات العربية تنظيرًا وتطبيقًا، وهو الذي نهل هذا المنهج من مظانه فرنسا وعلى يد أقطابه ورواده الأوائل وعلى رأسهم غريماس، فبفضل نشاطه الفعّال الذي برز في ترجمة الأطروحات السيميائية

(1) محمد هيشور، المشكلة المنهجية في الأدب الإسلامي، مجلة المشكاة، المغرب، 1994، ص118.

(2)عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة قصيدة القراءة(تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية)، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ص233.

(3)عبد المالك مرتاض، نظرية القراءة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2002، ص 245..

الفرنسية ساهم في التأصيل للنظرية وتوطينها في البيئة العربية، فأبحاثه القيّمة "استطاعت أن ترقى بالنقد العربي من الرؤية المعيارية إلى الرؤية العلمية وإلى أعلى درجة من التفكير والتمثل الواعي والهادف إلى بناء استراتيجية بحثيّة تعمل على إفراز قيم علمية، ستكون فاعلية لاشك في المسار الإيجابي الذي سيؤول إليه البحث السيميائي مستقبلاً"[1] ذلك أنّ مواكبة النقد العالمي الجديد يستوجب الانفتاح على النظريات السيميائية الغربية والاستعانة بها دون مساسٍ بالهوية العربية.

يعدّ الناقد رشيد بن مالك من النقاد الأوائل الذين تنبّه إلى الدور المهم لعملية الترجمة في نقل النظرية السيميائية إلى البيئة العربية ومحاولة منه التأصيل لها في الخطاب النقدي العربي وذلك بفضل تمكنه التام من اللغتين العربية والفرنسية ووعيه الكبير حتّى "لا تجعل القارئ يحس بأنّه يقرأ شيئا غريبا عن لغته وثقافته، وهذا لا يكون إلا إذا تمثّل المترجم الفكرة من مظانها وعمل على استنباتها في بيئة اللغة الثانية استنباتًا لا يكاد يترك للقارئ فرصة التشكيك في أنّ ما يقرؤه من صميم بيئته، خلاف لكثير من الترجمات التي هي عبارة عن طلاسم؛ فالكلمات عربية، ولكن لا روح عربية فيها"[2] مفصولة عن محاضنها التي ولدت فيها، غير أنّ اطّلاعه على هذا المنهج من موطنه الأم وفهمه العميق لمنطلقاته الفلسفية جعله يوّفق إلى حدٍّ كبير في توطين الدرس السيميائي رغم فوضى المصطلحات التي سادت النقد العربي، ويمكن لنا أن نستحضر كتابه الموسوم ب **مقدمة في السيميائية السردية** والذي يظهر من خلاله ميله الكبير نحو نظرية غريماس السيميائية وهو الذي تأثر بمقولاتها تأثرًا بالغًا، ما جعله يسعى إلى تقريبها للقارئ العربي من خلال هذا الكتاب مبينًا له الخلفية الابستمولوجية لهذه النظرية.

ومن الكتب المهمة التي ترجمها كتابه المعنون ب **السيميائية (الأصول، القواعد، التاريخ)** حيث نلفي الناقد يستمر في نهجه التعليمي والتعريفي بالنظرية السيميائية السردية قصد تذليل الصعاب للباحث العربي ليتجاوز جملة الإشكاليات "المتعلقة بافتقاد القارئ إلى المرجعية التاريخية لهذه البحوث، وافتقاره إلى الأرضيات البحثية التي انطلقت منها، والتيارات العلمية التي مهّدت لظهورها، وفوضى المصطلحات ، التي تعدّ السمة الغالبة في

(1)رشيد بن مالك، السيميائيات السردية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ص42.

(2)أحمد الفوجي، سيمياء الأهواء (نموذج الترجمة العالمة)، مجلة علامات، الجزائر، 2014، العدد41، ص05.

الخطاب النقدي العربي المعاصر"[1]، وهذه القراءة لا تأتي إلا عن طريق ناقد حصيف همّه الأول التأصيل للدرس السيميائي الغريماسي في المدونة النقدية العربية، وفيما يلي أهم المؤلفات النقدية والتي هي مزيج بين ترجمات ودراسات تأصيلية للمنهج السيميائي نذكر منها:

- قاموس مصطلحات التحليل السيميائي (2000)
- البنية السردية في النظرية السيميائية (2001).
- السيميائية، مدرسة باريس (2003)
- السيميائيات السردية (2006)
- من المعجميات إلى السيميائيات (2014)
- الخلفيات النظرية للسيميائيات (2022)

لقد سعى الناقد رشيد بن مالك إلى تمثل مقولات السيمياء السردية ذات التوجه الغريماسي وهو ما نلمسه من حضور غزير لمصطلحات هذا التوجه في دراساته، غير أنّ نقله لهذه المصطلحات يتم بوعيٍ كبير وبالاتّكاء على معاجم لسانية غربية؛ فهو "أثناء الترجمة تجاوز التعقيدات اللغوية والمفهومية المتخلّلة في المعجم بالرجوع إلى المعاجم اللسانية والنصوص السيميائية التي تشكل نقطة ارتكاز مهمة لفهم الإنجازات السيميائية"[2]، حتى تكون الترجمة دقيقة من جهة ويتجاوز غموضها أثناء توطينها في البيئة العربية من جهة أخرى، فيتلقاها القارئ العربي سهلة مفهومة، ومن أمثلة ذلك مصطلح **الاختلاف** الذي نقله عن غريماس للدلالة على الطريقة المثلى لاستكناه البنية العميقة في النص السردي، وما جعله متميزا ومفردا في ترجمته هو تمحيصه للمصطلح المنقول وهذا ما نلاحظه في تخليه عن مصطلح **الاستعمال** وتعويضه بمصطلح **التحريك** والذي نقله من كتاب مدخل إلى السيميائية السردية للناقد سعيد بنكراد.

ومن زاوية أخرى نجد أنّ الناقد في مواضع أخرى يعرّب المصطلح ويبقيه على صيغته الأجنبية، ومثال ذلك مصطلح **التشاكل (ISOTOPIE)** وقد أورده في كتابه قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، ويعرف الإيزوتوبيا على أنّه "التحام الرسالة أو

(1)فراجي بوبكر، التعريب والمصطلح، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2004، ص 59.

(2)رشيد بن مالك، السيميائية (الأصول، القواعد، التاريخ)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص07.

الخطاب، وهي بمثابة المستوى المشترك الذي يرد ممكنا اتساق المضامين .. على مستوى الجملة يمكن أن يتجدد ثبات دلالة واحدة أكثر من مرة واحدة على امتداد السلسلة الجميلة ليعطي إيزوتوبيا تؤدي إلى التحام مجموعة من السيميمات التي تشكل الجملة"[1]، هذا الانتقاء الواعي يبين عن تمرسٍ كبير للناقد ما جعله يساهم في ترويض هذه النظرية وتطويعها بما يتوافق والثقافة العربية، فالقفز بالقارئ العربي فوق وحل التشظ المصطلحي أولى الخطوات الهامة لإرساء الخطاب السيمائي العربي المعاصر.

خاتمة:

وقمين بالذكر في ختام هذا البحث عرض أبرز ما أفضى إليه وقوفنا على الخطاب السيميائي الجزائري:

- التأكيد أنّ الخطاب السيميائي الجزائري ورغم تأخره عن الركب إلا أنّه شديد التأثر بالنظرية السيميائية الغربية، ذلك أنّ الناقد الجزائري محكوم بخلفيته الغربية التي انطلق منها.

- المتأمل في هذا الخطاب يلمس في تمفصلاته المرجعية الفرنسية ثاوية فيه رغم التباين بين البيئتين الفرنسية والجزائرية، حيث جاءت الانطلاقة محتشمة إلّا أنها سرعان ما اكتسبت وعيًا عميق بالنظرية السيميائية الفرنسية من خلال الترجمة والتنظير والتطبيق.

- تعدّ الترجمة عاملًا مهمًا في نقل النظرية السيميائية الفرنسية إلى الوطن العربي، خاصة وأن بعض النقاد الجزائريين أمثال عبد المالك مرتاض ورشيد بن مالك قد امتلكوا ناصية اللغة الفرنسية واحتكوا بأعلام النقد الفرنسي أمثال غريماس وكورتيس وجريستيفا.

المراجع العربية:

1. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ط5، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007.

2. أحمد الفوحي، سيمياء الأهواء (نموذج الترجمة العالمة)، مجلة علامات، العدد 41،

(1) رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي، انجليزي، فرنسي)، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص 12.

2014.

3. بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت.

4. رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي، انجليزي، فرنسي)، دار الحكمة، الجزائر، 2000.

5. رشيد بن مالك، السيميائيات السردية، دار مجداوي، عمان، 2006.

6. رشيد بن مالك، السيميائية (الأصول، القواعد، والتاريخ)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2008.

7. صلاح الدين ملفوف، التجربة النقدية السيميائية في الجزائر (معالم وأعلام)، الملتقى الدولي الثامن (السيمياء والنص الأدبي)، بسكرة، 8-9-10 نوفمبر 2015.

8. عبد المالك مرتاض، ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.

9. عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة قصيدة القراءة (تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية)، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت ، 1994.

10. عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر(1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

11. عبد المالك مرتاض، نظرية القراءة (تأسيس للنظرية العامة للقراءة)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

12. علي خذري، تحديث النقد الجزائري، مجلة حوليات الآداب واللغات، العدد الثاني، جامعة المسيلة، 2006.

13. فراجي بوبكري، التعريب والمصطلح، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004.

14. كمال جدي، المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2011.

15. محمد هيشور، المشكلة المنهجية في الأدب الإسلامي، مجلة المشكاة، وجدة، 1994

16. يوسف الوغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2002.

17. يوسف الوغليسي، محاضرات النقد المعاصر، منشورات جامعة منتوري - قسنطينة، 2004.

18. يوسف الوغليسي، مناهج النقد الأدبي، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007

المراجع الأجنبية:

1- Ferdinand de saussure, cours de linguistique générale, payot, paris, 1979

2- T. Tudorov O. Ducrot, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Edition du seuile, Paris, 1972.